الإمام
محمد بن سعود
وجهوده في تأسيس
الدولة السعودية

1159-1139هـ/1746-1727م

أ.د. خليفة بن عبدالرحمن المسعود

لقد كان تأسيس الدرعية في منتصف القرن التاسع الهجري بارقة أمل في لمّ الشتات وجمع الكلمة في شبه الجزيرة العربية وتوحيد أرجائها في كيان واحد، وظهور أول وحدة سياسية توحد مناطقها وتجمع شتاتها المفقود تدرجاً بانتهاء عهد الدولة النبوية والخلافة الراشدة ثم العهد الأموي والعباسي وما تلا ذلك من ضعف وغياب الاستقرار والأمن.

ومنذ القرن الثاني عشر الهجري /الثامن عشر الميلادي حملت أسرة آل سعود على عاتقها مهمة تأسيس كيان تتحقق من خلاله وحدة الوطن، حيث انطلق العمل لتحقيق ذلك الهدف منذ أن وضعت لبنة البناء لتأسيس الدولة السعودية الأولى عام 1139هـ/1727م على يد الإمام محمد بن سعود لتصبح الدرعية عاصمة الدولة ومنطلق حملات التوحيد، لتتخذ تلك الدولة نهجاً راسخاً متوارثاً عبر الأجيال من خلال الدولة السعودية الثانية التي تأسست عام 1240هـ/1824م حتى عهد الدولة السعودية الحديثة (المملكة العربية السعودية) التي رفع رايتها مؤسس المملكة العربية السعودية وموحد مناطقها الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل بن تركي آل سعود- طيب الله ثراه- منذ استعادته الرياض عام 1319هـ/1902م حتى أعلن توحيد البلاد عام 1351هـ/1932م، حيث تمكنت هذه الدولة خلال ثلاث حقب تاريخية من تأسيس نظام حكم أصيل أسهم في تحقيق الازدهار والعدل والنماء، وأثمر مجموعة من التغييرات الإيجابية لبناء الإنسان والمكان في شبه الجزيرة العربية.

امتد حكم محمد بن سعود نحو 40 سنة من 1139هـ/1727م حتى 1179هـ/1765م، حيث كان يركز على وسط الجزيرة العربية في بعض النفوذ على البلدان الصغيرة والقبائل القريبة منها. ثم انتقل إلى بناء الدولة ووضع أسس الحكم فيها ونظامها الإداري والعسكري وبناء علاقاتها الخارجية.

يُنسب آل سعود إلى جدهم سعود بن محمد بن مقرن، ويعود نسبهم إلى المردة من قبيلة بني حنيفة البكرية الوائلية، أبناء حنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هِنْب بن أفصَى بن دُعْمِي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن مَعَد بن عَدنان .

وينتمون مكاناً إلى وادي العرض بمنطقة اليمامة، المعروف بوادي حنيفة موطن الجد الأول للقبيلة الذي قدم إلى المنطقة، وهو عبيد بن ثعلبة حفيد الجد حنيفة بن لُجَيْم بن صعب بن علي بن بكر بن وائل، عُرفت به، وعُرف بها منذ عصور ما قبل الإسلام؛ حتى سُمي الوادي باسم وادي حنيفة. ما يدل على عراقة حكم آل سعود وامتداد جذوره إلى فترة ضاربة في التاريخ في قلب شبه الجزيرة العربية.

نشأة إمارة الدرعية:

نتيجة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية في اليمامة حدثت هجرات من وسط الجزيرة العربية إلى شرقها، واستمر وجودهم في تلك المنطقة حتى منتصف القرن التاسع الهجري تقريباً /الخامس عشر الميلادي، حين استجدت ظروف أدت إلى عودتهم إلى منبعهم الأصلي، فكان زعيم الأسرة في شرق الجزيرة العربية آنذاك مانع بن ربيعة المريدي يقطن بمكن في شرق الجزيرة العربية يقال له الدرعية (الأولى) التي أسسها أسلافه بعد انتقالهم من وسط الجزيرة العربية، فتمت مراسلات بينه وبين قريبه ابن درع في منطقة حجر اليمامة نتج عنها انتقال الأمير مانع المريدي وأفراد العشيرة إلى نجد في عام 850 هـ/1446م، ومن المرجح أن مما دعا مانعاً للانتقال إلى نجد هو العودة إلى موطن الأسلاف، وكان مما دعا ابن درع لاستدعائه ومنحه أرضاً الرغبة بالتقوي به وبأتباعه، والعمل لإعادة الصلات الأسرية من جديد بعد انقطاع طويل.

وعلى أي حال فقد منح ابن درع مانعاً موضعي المليبيد وغصيبة ليؤسس عليهما إمارته؛ حيث أصبحتا فيما بعد نواة لتأسيس الدولة السعودية الأولى، وسميت بالدرعية (الثانية) التي صارت إمارة فيما بعد، وتوارثها أبناء الأمير مانع المريدي وأحفاده من بعده .

الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى:

النسب والمولد:

هو محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة المريدي الحنفي العدناني ولد في الدرعية في نحو عام 1090هـ/1679م، وله من الأولاد فيصل، وسعود، وعبدالعزيز (الإمام)، وعبدالله، وعلي، ومرخان، وهيا، وطرفة.

واشتهرت من زوجاته موضي بنت سلطان بن أبي وهطان من آل كثير، ويبدو أن صلة قبيلة آل كثير وموالاتها لآل مقرن كانت سبباً في اختيار الأمير سعود بن محمد بن مقرن موضي زوجة لابنه محمد، وقد عرفت موضي برجاحة العقل والدين؛ وهذا ما جعل رأيها محل احترام وقبول لدى زوجها الإمام محمد بن سعود.

صفاته الشخصية:

امتلك الإمام محمد بن سعود من الصفات الشخصية ما جعله مؤهلاً لتولي القيادة منذ وقت مبكر؛ فقد عرف بحسن السيرة والوفاء وحسن المعاملة، وظهرت تلك الصفات في شخصيته قبل توليه الإمارة، بل كان من أبرز الشخصيات في الدرعية في هذا الجانب، ويشير ابن غنام لذلك بقوله: "بحسن السيرة معروفاً، وبالوفاء وحسن المعاملة موصوفاً مشهوراً بذلك دون من هنالك". وعلى الرغم مما تشير إليه المصادر من تراجع ديني في المجتمع خلال الفترة التي سبقت

ظهورالدعوة الاصلاحية فإن الإمام محمد بن سعود اتصف بالتدين منذ وقت مبكر سابق للدعوة ؛ وتشير المصادر إلى ما تميز به الإمام محمد من كثرة العبادة وعمل الخيرات وأنه "حسن السيرة والسريرة"، وكان تدينه على الدين السليم والفطرة السوية التي عرف بها أهل البلاد البعيدة عن مناطق انتشار الممارسات الضالة، وقد عرف عنه كره أصحاب هذه الممارسات وعدم ارتياحه من ذيوع صيتهم.

أما الكرم فقد كان أحد خصاله البارزة؛ وقد بلغ به السخاء أنه كان يتكفل بسداد ديون الناس ليس من الدرعية فحسب؛ بل من بلدان نجد المختلفة، وبمجرد أن يتحقق من صدق صاحب الطلب يقوم بسداده مهما كانت قيمته، ومن أمثلة كرمه أن تاجراً يدعى ناصر بن إبراهيم قدم إليه في الدرعية فشكا له إفلاسه وتحمله ديناً بما يقارب أربعة آلاف ذهباً. وحين شعر باللوم في عيون من حوله بسبب دفعه هذا المبلغ الكبير لرجل لا يعرفه كان جوابه مليئاً بالحكمة ومكارم الأخلاق حيث قال: "يا أولادي، الدنيا إنما جعلت لكرامة بني آدم، فالسخيّ منهم ذو الشرف إذا ذل ينبغي إعانته بما يمكن لئلا يزدريه السفّل، وناصر بن إبراهيم قد سمعتم به إنه رجل كان ذا مال وشرف وقد اضطره الزمان، فعلى الناس الكرام إبداء الخير لمثله" . وتدل هذه العبارة على إدراك الإمام محمد بن سعود لمقامات الرجال أهل الخير والفضل وإنزالهم منازلهم، وعدم كسر نفوس ذوي المقامات حتى لا يكونوا تحت نظرة ازدراء أراذل الناس، وحفظاً لمكانتهم في المجتمع ما يشجع الآخرين على التزام نهجهم السوي.

ومن الصفات التي تميز بها الإمام محمد بن سعود وظهرت عليه قبل توليه الإمارة، الشجاعة وسداد الرأي وحسن القيادة والوفاء بالعهد، حيث يتبين من استقراء الأحداث المبكرة التي شارك فيها امتلاكه لهذه الصفات، ولا سيما في الأحداث المتعلقة بالنزاع مع العيينة خلال إمارة زيد بن مرخان وبقية الأعمال التي قام بها خلال تلك المرحلة كما سيأتي.

سياسته الداخلية وإصلاحاته الاجتماعية:

يعد الإمام محمد بن سعود مؤسس الدولة السعودية الأولى، وكان له الدور الكبير في بناء أول وحدة سياسية في المنطقة حيث شهد عهده بداية توحيد بلدان نجد بدءاً من العيينة وحريملاء ومنفوحة ثم شقراء والقويعية والمحمل وثادق والقصب والفرعة وغيرها، كما أصبحت الدرعية في عهده المبكر قادرة على حماية نجد من أي خطر خارجي منذ نجاحها بالتصدي لهجوم متكرر من حكام الأحساء، وحينما توفي الإمام محمد بن سعود في ربيع الأول سنة 1179هـ/مارس 1765م كانت الدولة قد أظهرت تفوقها على خصومها في نجد الذين اتخذوا موقف الدفاع، خاصة دهام بن دواس أمير الرياض، الأمر الذي مكنها في عهد أبنائه وأحفاده من مواصلة توسعها والسيطرة على معظم مناطق شبه الجزيرة العربية.

كانت أولى خطوات محمد بن سعود الناجحة حين تولى الحكم هي اتخاذ قراره بتوحيد شطري الدرعية تحت قيادة واحدة، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن بشر: "..فاستقل محمد بعد هذه

بولاية الدرعية كلها ومعها غصيبة..". وقوله "ومعها غصيبة" يشير إلى وضع الدرعية حينذاك.

ولقد بدأ حي غصيبة بالنمو وأعاد له محمد بن سعود مجده السابق الذي عرف به خلال فترة حكم جده محمد بن مقرن الذي وصفه المؤرخون بـــ:"شيخ غصيبة"؛ ومع بداية حكم الإمام محمد بن سعود كان حي غصيبة مقرّاً للحكم.

ومع شح المعلومات فيما يتعلق بالفترة الأولى من حكم الإمام محمد بن سعود الممتدة لعشرين عاماً من 1139هـ حتى 1159هـ فإنه يمكن القول إن هذه الفترة كان لها أهمية عظمى في تاريخ الجزيرة العربية حيث شهدت وضع بذرة دولة قوية راسخة، ومن المؤكد أن استمرار حكمه كل تلك المدة يدل على الاستقرار والأمن، كما يدل على حكمة الرجل؛ لأنه استطاع القضاء على دسائس المنافسين في الداخل وإنهاء الفتن، كما تمكن من حماية بلاده ضد الأعداء والطامعين من الخارج.

كان الإمام محمد بن سعود كثير الاهتمام والتفكير بإدارة دولته الجديدة، حيث استشعر ثقل المسؤولية والأمانة الملقاة على عاتقه، وكان حريصاً على وضع مبادئ ثابتة أساسها إطفاء الفتن وتجنب النزاعات ما أمكن ذلك؛ ولذا كان يخصص أوقاتاً يختلي بنفسه للنظر في أمور الحكم ومستقبل الدولة الجديدة التي بدأ بوضع أسسها؛ ومن خلال تلك الأسس كان الإمام محمد بن سعود هو رئيس الدولة وابنه عبدالعزيز القائد العام للجيش، كما ظهرت المناصب الإدارية بوجود القاضي أو المفتي، وتبلور التنظيم الاقتصادي للدولة بوجود ميزانية للإمارة تبين المدخولات والمصروفات والديون.

ولقد رسم الإمام محمد بن سعود نهجاً واضحاً في تنظيم العلاقة بين القائد والرعية أصبح قدوة في البلاد حتى يومنا هذا؛ فكان منهجه القرب مع الناس؛ مما اصطلح على تسميته سياسة الباب المفتوح، كما تشير المصادر إلى تواضعه في التعامل معهم، وعدم التكلف أو الإثقال عليهم، واتصف منهجه بالعدل والمساواة بين فئات الناس المختلفة، وعدم تفضيل أحد على آخر إلا بما كان أهلاً له، كما عمل لمنع الظلم والتعدي على أموال الناس بلا وجه حق، ما نتج عنه حفظ حقوق الناس وعدم التعرض لهم، ولا شك أن كل تلك الممارسات تشير إلى وجود أسس دينية وقيم اجتماعية سار عليها الإمام محمد بن سعود في ممارسة الحكم.

إستراتيجيته العسكرية:

اتصف الإمام محمد بن سعود بالشجاعة والبراعة العسكرية منذ وقت مبكر حسبما ثبت من حوادث الفترة التي سبقت توليه الحكم ؛ ولا سيما في حادثتي حماية زيد بن مرخان وحماية مقاتلي الدرعية؛ لذلك لم يكن مستغرباً أن تصفه المصادر بأنه ذو موهبة إدارية حربية كبيرة، وبعد توليه الحكم أصبح القائد الرسمي للجيش، وكان يخوض غمار الحروب مع خصومه، ويشير مانجان إلى أن الإمام محمد بن سعود كان القائد الذي استطاع أن يقود جيشه من نصر إلى آخر، ولم يتخل عن ذلك إلا في بعض الحالات التي استدعت ذلك، مثل مرضه، أو تأهيل ابنه

عبدالعزيز الذي بدأ في ممارسة مهام عسكرية حيث جرت العادة أن يتخلى الحاكم عن بعض مهامه لولي عهده ويشمل ذلك قيادة الجيش.

لقد أولى الإمام محمد بن سعود عناية كبيرة لتأسيس جيش يمكن من خلاله حماية الدولة ويكون وسيلة لتمكينها مستقبلاً، حيث وضع أول مخططاته الحربية ولم يألُ جهداً لتحقيقها؛ فأشرف بنفسه على تنظيم قواته التي كانت معتادة على الصبر بإخضاعهم لكل التدريبات اللازمة عبر نظام صارم، وعلى الالتزام ببساطة كانت ضرورية كي تناسب ظروف المكان والزمان، كما زاد عدد الإبل نظراً للحاجة إليها في حروب الصحراء؛ حيث أصبح بإمكان الجمل أن يحمل المؤن الضرورية لمسيرة عشرين يوماً، وكان لتلك الخطوات دور في إعداد جيش على أهبة الاستعداد لتحقيق طموحات قائده مستخدماً جميع التكتيكات العسكرية. على أن ما تجب الإشارة إليه أن المقاتلين في ذلك الجيش لم يكونوا متفرغين على وظائف بمرتبات رسمية، بل كانوا يدعون إلى الاجتماع عند إعلان الحرب.

وفي مجال التكتيك العسكري كان الإمام محمد بن سعود ماهراً في إخفاء مقاصده وتحركاته كيلا يستفز جيرانه الأقوياء، ولا يكشف مخططاته لخصومه. كما كان يطلب استقصاء أحوال العدو في كل معركة، والامتناع عن مهاجمته أو متابعته منهزماً إلا بعد التثبت من النصر والأمن من الكمين.

كما اتخذ الإمام محمد بن سعود تدابير مالية وفرت له المال اللازم لزيادة عدد مقاتليه من غير زيادة كبيرة في نفقات الدولة. ومن الواضح أن الدولة ونتيجة تلك الجهود من الإمام محمد بن سعود قد وصلت إلى درجة كبيرة من القوة العسكرية التي يمكن الوثوق بها والتعويل عليها ما مكن الأمير محمد بن سعود من نشر هيبته بين بلدان نجد عبر القيام بحملات لتحقيق ذلك، بل إن البلدان المجاورة التي عرف عنها القوة العسكرية والمراس الحربي أصبحت في حاجة إلى طلب المساعدة من الدرعية؛ كما حدث في الرياض ثم منفوحة ضد دهام بن دواس، وفي الوقت نفسه تولد لدى قادة الدرعية ثقة في جيشهم فلم يترددوا في إجابة طلبات المساعدة من جيرانهم متى رأوا في ذلك مصلحة، ويمكن تحديد أبرز ملامح السياسة الداخلية خلال الفترة 1139-1159هـ (1727-1746م) من حكم الإمام محمد بن سعود منذ توليه الحكم عام 1139هـ / 1727م فيما يأتي:

- تركيز اهتمامه على الأمور الداخلية حيث لا تتحدث المصادر عن أحداث خارجية مرتبطة بالدولة وعاصمتها الدرعية إلا بشكل نادر وخلال أحداث سنوات قليلة فقط.

- انشغاله بالتأسيس، لأنه أول أئمة الدولة السعودية الأولى، وهذا ما أوجد تميزاً لحكم هذا الإمام، جعله يدرك أهمية التأسيس لهذه الدولة بعقد المقارنة بين الوضع غير المستقر لمنطقة نجد في الفترة الأولى من حكمه والوضع الأمثل الذي بدأ يتحقق لها في الفترة الثانية. وهذا ما دفعه بعد إلى التمسك بما تحقق على يديه من خير ووحدة لهذه المنطقة، وإلى أن يتحمل كل الصعاب والمشاق، ويسعى إلى تذليلها، سواء كان ذلك بالوسائل السلمية أو الحربية.

- وضع سياسة اجتماعية تقوم على أن خير من يقوم ببناء الوطن والدفاع عنه هم أبناؤه، وهذا يتطلب زيادة أعداد السكان، ولذلك سعى إلى تشجيع الشباب على الزواج بكل الوسائل، وكان يتكفل بدفع مصاريف غير القادرين ماديّاً، كما كان يذهب بنفسه لإقناع من يرفضون تزويج بناتهم، ويعلن ضمانه للمتزوج أمام الأسرة.

- الحرص على تشجيع العلم وأهله واحترام العلماء ومكانتهم، وكان ذلك سبباً في ازدهار الحياة العلمية نوعاً ما في الدرعية بوجود عدد من العلماء من أبرزهم القاضي الشيخ عبدالله بن عيسى، وابنه الشيخ عبدالوهاب، وكذلك الشيخ عيسى بن قاسم الذي كان من أوائل المؤيدين للدعوة الإصلاحية، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن سويلم، وابن عمه الشيخ أحمد بن محمد بن سويلم، ولا ريب أن وجود هذا العدد الذي لا بأس به من هؤلاء العلماء وغيرهم قد أدى إلى نمو الحركة العلمية في الدولة وعاصمتها الدرعية في هذه الفترة من حكم الأمير محمد بن سعود؛ مما جعل الدرعية أكثر تأهيلاً من غيرها من بلدان المنطقة لاحتضان الدعوة الإصلاحية، إذ غدت من أهم المراكز العلمية في المنطقة، ونافست البلدان المجاورة في الناحية العلمية.

- الاهتمام بوضع بناء اقتصادي متين يقوم على توفير الموارد المالية عن طريق تشجيع التبادل التجاري بين الدرعية والبلدان الأخرى وتسهيل كل مايعيق ذلك، إضافة إلى دعم الموارد المالية بأخذ جزء من المحاصيل الزراعية من المزارعين كما كان سائداً في بلدان نجد، غير أنه كان يقتصر في ذلك على الأمور الضرورية مثل متطلبات الضيافة العامة التي توكل للأمير غالبا ومتطلبات الدفاع عن البلد . وفي الوقت نفسه حرص الإمام محمد بن سعود على تطبيق سياسة اقتصادية بعيدة عن الإسراف والتبذير؛ مع ميل للترشيد في الإنفاق . وعلى الرغم من قلة الإمكانات وشح الموارد خلال الفترة الأولى من حكمه فإنه تمكن من رسم خط واضح لمسيرة الدولة القادمة بكل تحتاج إليه من مؤسسات مدنية وتنظيمات.

علاقاته الخارجية:

على الرغم من انتشار الفتن في المنطقة، والعداء المستمر بين بلدانها كان الإمام محمد بن سعود حكيماً موفقاً في سياسته الخارجية والتعامل مع بلدان المنطقة، كما كان حريصاً على عدم استثارة القوى الكبرى في وقت كانت دولته في طور التكوين، وتبين وصيته لأبنائه من بعده النظرة البعيدة التي تميز بها حيث طلب منهم مواصلة بناء الدولة لكن " لا تفجروا الصخر.." وكان يقصد بها عدم إثارة الدول القوية بأعمال تفجر غضبها عليكم، وهي دعوة واضحة للامتناع عن استفزاز الجيران الأقوياء.

وللباحث أن يتساءل أمام هذه العبارة: هل كانت هناك نوايا لتوسيع الدولة بشكل كبير لدى الإمام محمد بن سعود منذ توليه الإمارة أم أن ذلك أمر أملته الظروف المستقبلية؟

إن مما تميز به الإمام محمد بن سعود تفكيره المختلف عن أسلافه من أمراء الدرعية وأقرانه من أمراء البلدان النجدية؛ حيث كان يؤمن بضرورة جمع شتات المنطقة تحت راية توحدها لتكون قادرة على خدمة الناس وتأمين الاستقرار والتصدي للاعتداءات الخارجية، إذ أثبتت الأحداث السابقة أن العزيمة واجتماع الكلمة كافية لتحقيق هذا الهدف وهو ما حدث من خلال تصدي الدرعية لعدد من الحملات المناوئة لها.

ومن المؤكد أن صفة الحاكم القوي الطموح التي تميز بها قد أوحت إليه بأن إمارته بحاجة لنظام إداري يساعد في الحصول على موارد اقتصادية جديدة.

ومن الملحوظ أن الفترة التي بدأ فيها محمد بن سعود تأسيس الدولة السعودية الأولى من الدرعية قد شهدت تغييراً في أمراء بعض بلدان نجد المجاورة، فقد تولى إمارة العيينة محمد بن حمد بن عبدالله بن معمر بعد وفاة جده، بينما توفي دواس أمير منفوحة وانتقلت أسرته إلى الرياض ليتمكن أحد أفرادها وهو دهام بن دواس على أثر ذلك من الوصول إلى الإمارة فيها.

ويمكن تحديد أبرز مظاهر سياسة الإمام محمد بن سعود خلال الفترة المذكورة من حكمه فيما يأتي:

1- انعدام النزاع بينه وبين جيرانه، وندرة الصدام معهم ، وهو ما يدل على استقرار الدولة وجنوحه للسلم وحسن العلاقة مع جيرانه، على الرغم من وجود تجاوزات من بعض البلدان أدت إلى تذبذب العلاقة مع الدولة، حيث كانت العيينة ملجأ لبعض الفارين من الدولة السعودية مما تسبب في تأزم العلاقات بينهما، واضطر الإمام محمد بن سعود إلى شن هجمات تأديبية على العيينة كما حدث سنة 1144هـ ؛ لكن الإمام محمد بن سعود تعامل مع ذلك الأمر بحكمة وروية .

2- تحسن علاقة الدولة مع جيرانها، وانفتاح مجتمعها على البلدات المجاورة ولا سيما العيينة.

3- تعزيز مكانة الدولة السعودية بين بلدات المنطقة، حيث وضع أسس التعامل مع الوافدين إلى الدرعية من المسافرين وعابري السبيل، وذلك بتوفير الأمن لهم ومنع أخذ الأموال منهم مقابل مرورهم بالدرعية وحدودها، كما حرص على تسهيل مرور الحجاج المتجهين إلى مكة المكرمة والعائدين منها، والعمل لإكرامهم وتزويدهم بما يحتاجون للوصول إلى بغيتهم. ومع أن المصادر تشير إلى ظهور هذه الأعمال بشكل واضح فإن المؤكد وجودها كخلق ثابت وشيمة من شيم العرب.

4- الحرص على ترتيب أوضاع المنطقة وضمان استقرارها والقضاء على الفتن فيها، وذلك بتقديم العون للبلدات المجاورة ووقف الاضطرابات فيها؛ ففي سنة 1151هـ /1738م قدم المساعدة لأمير الرياض دهام بن دواس الذي حكم الرياض بحجة أنه وصي على ابن أميرها المقتول زيد بن موسى أبا زرعة بحجة أنه خاله، لكنه لم يلبث أن قام بطرد ابن زيد وسيطر على الإمارة، فكرهه عامة أهل الرياض وسعوا في عزله وحصروه في قصره، فأرسل دهام أخاه مشلب بن

دواس إلى الدرعية لطلب النجدة من حاكمها محمد بن سعود الذي أرسل أخاه مشاري بن سعود بقوات أهل الدولة السعودية لمساعدة حاكم الرياض.

لقد رأى الإمام محمد بن سعود أن في أحداث الرياض واضطرابها أثر في أمن المنطقة بأسرها، وأن دهام بن دواس هو الشخص المتغلب والوصي على ابن الأمير الشرعي ضد مغتصب الإمارة خميس، ونظراً للرغبة في حفظ هيبة الإمارة، والقضاء على الفتنة، وكسب موقف دهام بن دواس فقد اتخذ قرار مساعدة دهام واستجاب لطلبه.

5 - قوة الدرعية وتمكنها من صد الاعتداءات الخارجية كان دافعاً لانتصارات جديدة، ويشير بعض المؤرخين إلى أن ذلك النجاح قد جعل الظروف مواتية لأن يختار الشيخ محمد بن عبدالوهاب الدرعية بعد تركه العيينة، وهذا القول يؤكد على المكانة الكبيرة التي تمتعت بها الدرعية خلال الفترة الأولى من حكم الإمام محمد بن سعود.

تأييد الدعوة الاصلاحية:

على الرغم من أن وصول الدعوة الإصلاحية للدرعية قد جاء بعد ما يقارب عشرين سنة من تأسيس الدولة السعودية الأولى فإن هناك من ربط بين الأمرين وجعل التأسيس متزامناً مع وصول الدعوة، ولعل السبب في ذلك أن المؤرخين الأوائل بدؤوا حديثهم المفصل عن الدولة السعودية الأولى منذ ذلك الحدث، ولعل مرد ذلك حماس بعضهم للدعوة وكونه محسوباً عليها فاهتم بتأريخ تحركاتها ولم يهتم بأحداث الدولة إلا بعد وصول الدعوة، إضافة إلى اهتمام الآخرين بمرحلة انضمام البلدان الجديدة للدولة وبداية التوسع بضم ثلاث بلدات نجدية مهمة هي العيينة ومنفوحة وحريملاء تزامناً مع وصول الدعوة إلى الدرعية، بل إن هؤلاء المؤرخين لم يتفقوا على قول واحد في وصول الدعوة إلى الدرعية، ومنهم من جعل ذلك عام 1159هـ/1746م وهو العام الذي شهد بداية التحرك العسكري لصد أعداء الدولة والذود عن أتباعها، علماً بأن أيّاً من هؤلاء المؤرخين لم يشيروا من قريب ولا من بعيد إلى أن وصول الدعوة للدرعية كانت بداية الدولة السعودية الأولى.

كان من المتوقع أن تجد الدعوة الاصلاحية قبولاً لدى الإمام محمد بن سعود نظراً لما تميز به من خصال الخير والتدين، وفي واقع الأمر كان تأييده للدعوة وحماسه الصادق في نشرها أحد أبرز الأعمال الخيرة التي قام بها.

وعلى حين تكتفي روايات مؤرخي نجد - مثل: ابن غنام وابن بشر- بالإشارة إلى أن الشيخ محمد بعد خروجه من العيينة اختار الدرعية مقرّاً لدعوته، وعند وصوله إليها استقر في منزل ابن سويلم فقدم إليه الإمام محمد بن سعود ورحب به؛ فإن تلك الروايات قد أغفلت حقيقة موقف الإمام محمد بن سعود من الدعوة؛ إذ صورت موقفه كأنه للتو قد علم بقدوم الشيخ وتابع دعوته، خاصة حين تذكر تلك الروايات الخوف الذي أدرك ابن سويلم خوفاً من غضب الإمام محمد بن سعود بسبب استضافته للشيخ.

إن تتبع انتشار الدعوة يؤكد الصلات القوية لحكام الدرعية وأعيانها مع الدعوة خلال مرحلة العيينة التي امتدت من 1154هـ / 1741م وحتى 1157هـ/1744م، ولم تكن الدرعية خلال تلك الفترة بعيدة عن الدعوة، فقد كان الشيخ قبل التجائه إليها على صلة وثيقة بعدد غير قليل من كبار رجالها من خلال تبادل الرسائل العلمية بينهم وبين الشيخ، ومن خلال حضورهم دروسه في العيينة، كالأميرين ثنيان ومشاري من إخوة الإمام محمد بن سعود، وآل سويلم، وغيرهم، بل إن الأمير عبدالعزيز بن محمد بن سعود قد طلب من الشيخ قبل انتقاله إلى الدرعية كتابة رسالة تتضمن تفسير سورة الفاتحة فكتب الشيخ هذه الرسالة وأرسلها إليه.

إنه من الأكيد أن الشيخ لم ينتقل إلى الدرعية إلا بدعوة من أميرها، ويشير مانجان الذي استقى معلوماته من آل سعود وآل الشيخ في مصر أن أنصار الشيخ في الدرعية لما عرفوا حرج موقفه في العيينة أبلغوا إمام الدولة بذلك، فأرسل إلى الشيخ مع بعضهم رسالة قد تكون شفوية يدعوه فيها للمجيء إلى الدرعية عاجلاً، ويعده الحماية والمنعة، وأن الشيخ. "في مثل هذه الظروف المتوترة رضي باللجوء إلى الدولة السعودية في الدرعية وإمامها محمد بن سعود. " و"أن الإمام محمداً أُبلغ سلفاً باليوم الذي سيقدم فيه الشيخ على الدرعية فأرسل إليه عدداً من الفرسان لاستقباله ومواكبته على مسافة طويلة من البلدة " .

إن هذه الرواية أقرب إلى الدقة والتوافق مع سياق الأحداث، فالإمام محمد بن سعود كان مطلعاً على أمر الشيخ منذ أن كان في العيينة عن طريق بعض أفراد أسرته، وربما كان لهم ولزوجته موضي بنت أبي وهطان مزيد من التأثير في مبادرته بالتواصل معه وطلب قدومه إلى الدرعية، ومما يزيد من دقة هذه الرواية ما ذكره المؤرخ ابن لعبون في أوراقه بأن الشيخ انتقل إلى الدرعية بدعوة من الإمام.

ويؤكد مؤلف لمع الشهاب ذلك ضمناً حين ذكر أن الشيخ لم يخرج إلى الدرعية إلا بعد أن مُنح الأمان له ولعياله، "فأعطوه ذلك فهيأ نفسه وعياله ومن يتبعه للخروج فخرجوا ذلك اليوم قبيل غروب الشمس فأتوا (الدولة السعودية في الدرعية) قرية محمد بن سعود، ولما وصلوا قريباً منها بنصف ساعة أخبر به محمد بن سعود فخرج يتلقاه هو وابنه عبدالعزيز وكثير من أهل بيته وأهل بلده بالقبول والإكرام، فأنزله على مقام وأخلى بيته لأجله".

وهكذا يترجّح أن الشيخ لم يتحرك إلى الدرعية إلا بعد تلقيه دعوة من إمام الدولة، وكان مما شجع الشيخ على الانتقال إلى الدرعية، ما تميزت به من وجود دولة ذات قوة واستقرار واستقلالية في عهد الإمام محمد بن سعود حيث صمدت ضد هجوم بني خالد وقدمت الدعم لأمير الرياض دهام بن دواس، إضافة إلى صدها لاعتداءات بني خالد مما يضمن عدم ممارستهم ضغطاً على حكامها لإخراج الشيخ مجدداً كما فعلوا مع عثمان بن معمر أمير العيينة .

ومن الواضح أن فكرة الانتقال كانت تراود الشيخ منذ كان في العيينة؛ لأنها هي السبيل الوحيد لمنحه الضمانات الكافية لحمايته ونشر الدعوة، ولذلك حاول الشيخ عقد مثل هذا

الاتفاق مع عثمان بن معمر حين اتفقا على. ."إقامة هذا الأمر والدين والعمل بالشرع. .". لكن هذا الاتفاق لم يدم طويلاً ولم يحقق الهدف الذي كان الشيخ يطمح إليه بسبب تدخل حاكم الأحساء سليمان بن محمد الذي أجبر ابن معمر على طرد الشيخ من بلدته.

كان استقبال الإمام محمد بن سعود للشيخ محمد بن عبدالوهاب نقطة تحول كبرى في مسيرة الدعوة الإصلاحية، وذلك بما توافر لها من مناخ مناسب للدعوة وانتشارها؛ إذ لم يكن ليتحقق لها ذلك دون وجود قوة سياسية تحميها، فكانت هذه القوة تتمثل في الدولة السعودية الأولى، فكان اتحاد هذه القوة مع ما جاءت به الدعوة من مبادئ نقطة انطلاق لتحقيق تلك المبادئ النظرية إلى واقع ملموس. يقول فيليب حتي: "وجد هذا المصلح في محمد بن سعود خير نصير.. وهذه حادثة أخرى يقترن فيها الدين والسلطة ونتج عنها انتشار سريع لحركة الموحدين ونفوذ ابن سعود.. فكان أكبر ملك في الجزيرة منذ أيام النبي.." .

إن مما يجدر الحديث عنه خلال دراسة هذه الفترة ما حدث من تغيير في وضع الإمام محمد بن سعود كحاكم لدولة رسمية واتخاذه (لقب الإمام)، فقد وصف بعض الكتّاب الغربيين الإمام محمد بن سعود بأنه مؤسس إمارة نجد وأطلقوا عليه لقب (شيخ)، ومن المرجح أن لقب شيخ لديهم يساوي لقب زعيم أو رئيس جماعة، وهو مشتق من الفعل شاخ بمعنى سيطر وحكم، كما يطلق على شيوخ القبائل باعتبار بلدان نجد في تلك الفترة أشبه بالنظام القبلي، ويشير بوركهارت إلى أنه أول من تلقب بأمير من آل مقرن، وكان قبل ذلك يلقب شيخ الدرعية أو صاحبها أو رئيسها، في حين لقّبه مؤرخو نجد بعدد من الألقاب التي تصف طبيعة سلطته؛ فقد وصفه الفاخري بـ (الرئيس)، وهو لقب أطلق على كثير من أمراء بلدان نجد في المصادر النجدية، فيما لقبه ابن غنام بالأمير، ووصفه ابن بشر بـ (الإمام الرئيس)؛ وهذا يعني أنه لم يتخذ لقباً ثابتاً رسميّاً إلا ما جرت العادة إطلاقه على أمثاله من حكام بلدان نجد آنذاك من هذه الألقاب.

كان لقب الإمام هو الأبرز في مسيرة محمد بن سعود، وهو لقب مستحق لتوافر صفات الإمامة فيه بعد تأسيسه الدولة وظهور نوع من السياسة الشرعية عبر كيان سياسي ودولة تصدر كل أعمال قادتها عن الكتاب والسنة، حيث دخلت المنطقة مرحلة جديدة اقتضت وجود مرجعية شرعية وسياسية يمكنها جمع كلمة المسلمين وتمنع الفرقة والشتات الديني والسياسي؛ كل ذلك تطلب أن يتغير اسم القائد من أمير إلى إمام بما له من شمولية وعمق قيادي.

ولإطلاق لقب الإمام على الحكام من آل سعود ما يؤكده شرعاً وتاريخاً؛ فمن الوجهة الشرعية كان اتفاق أئمة المذاهب على شرعية حكم الإمام المتغلب، وقد أوضح الشيخ محمد بن عبدالوهاب ذلك بقوله: "الأئمة مجمعون من كل مذهب على أن من تغلب على بلد أو بلدان له حكم الإمام في جميع الأشياء، ولولا هذا ما استقامت الدنيا، لأن الناس من زمن طويل قبل الإمام أحمد إلى يومنا هذا ما اجتمعوا على إمام واحد، ولا يعرفون أحداً من العلماء ذكر

أن شيئاً من الأحكام لا يصح إلا بالإمام الأعظم"، وفي كلام الشيخ هنا رد واضح جلي على ما أثير حول إطلاق لفظة إمام من بعض الشبهات تلبيساً على الناس بأن فيها منازعة للسلطان العثماني، فالدولة العثمانية لم يكن لها آنذاك أي سلطة في نجد بل حتى في الجزيرة العربية باستثناء حكم اسمي في الحجاز حاولت من خلاله اكتساب صفة شرعية لدى المسلمين في وقت غفلت عن رعاية الدين ونشر العقيدة الصحيحة؛ بل ربما كانت سبباً في انتشار المذاهب المخالفة للدين والعقيدة الصحيحة من خلال تبني بعض المذاهب غير الشرعية ودعمها لتكون عقيدة رسمية للدولة، في حين قامت الدولة السعودية الأولى على أساس تصحيح الدين وإزالة ما علق به من بدع وخرافات.

كما أن مؤرخي نجد والدولة السعودية الأولى ابن غنام وابن بشر أطلقا هذا اللقب على محمد بن سعود؛ فقد أكد ابن غنام توافر صفات الإمامة فيه وإطلاق لفظها عليه واستحقاقه له حيث قال عند حديثه عن انتصارات جيوش الدولة عام 1178هـ:

بحكم إمام المسلمين وعدله تحاط نواحيها ويحمى عرينها

وكذلك وصفه به ابن بشر بالإمام عندما تحدث عن وفاته سنة 1179هـ.

وما لوحظ من تعدد ألقابه كأمير أو رئيس وإمام فلعل مرده إلى أنه لم يكن لدى هؤلاء الكتاب معايير كتابية، فكانوا يكتبون حسب رؤيتهم.

وعلى حين تشير بعض المصادر إلى أن لقب الإمام لم يطلق على الإمام محمد بن سعود إلا بعد وفاته بل أطلق على بقية حكام الدولة السعودية الأولى بدءاً من الإمام سعود بن عبدالعزيز؛ فإن هذا القول لا يتفق مع الشواهد السابقة من كلام الشيخ محمد بن عبدالوهاب وما ذكره ابن غنام وابن بشر، والتي تؤكد قدم إطلاقه وجواز استعماله وأنه معروف ومتداول، ولعل اللبس في هذا الأمر قد جاء بسبب تعدد مرادفات ألقاب الإمام محمد مثل أمير ورئيس، كما أنه لم يصف نفسه بالإمام بل وصفه بذلك من حوله، وهذا أمر متوقع نتيجة عدم اهتمامه بالمظاهر وغلبة صفة التواضع عليه كما مر في سيرته. كما أن لقب الإمام قد أطلق على محمد بن سعود وبقية حكام الدولة، ولم يطلق على الشيخ محمد بن عبدالوهاب كما توهم بعض الباحثين ؛ بل إن الشيخ نفسه أطلق هذا اللقب على محمد بن سعود، كما يؤكد الشيخ عبدالله أبا بطين أن لقب إمام لم يطلق على الشيخ محمد بن عبدالوهاب طوال حياته، وهذا ما يتوافق أيضاً مع المصادر التاريخية حيث وصف كل من ابن غنام والفاخري وابن بشر محمد بن عبدالوهاب بالشيخ.

وفي سنة 1159هـ /1746م رأت القيادة في الدولة السعودية أن الوقت حان للانتقال إلى مرحلة جديدة ينال فيها بالقوة ما لم ينل بطريقة الحجة والإقناع، ومن أسباب ذلك شعور أنصار الدولة بالاطمئنان بعد انضمام العيينة ومنفوحة وحريملاء، وبعد المنطقة عن أي سلطة مركزية قوية؛ فهي ميدان فسيح لتحقيق كثير من النجاح العسكري قبل أن تمتد إليها يد خارجية تحاول القضاء عليها، كما أن شح إمكانات الدرعية الاقتصادية ومحدوديتها أمام تزايد الوافدين إليها

مـن أنصـار الدولـة كان باعثـاً لإيجـاد مخـرج مـن هـذه المشـكلة الاقتصاديـة. ومما يجـب أخـذه بعيـن الحسـبان أن التحـرك العسـكري لـم يكـن السـبب المباشـر فـي تزايـد المنضميـن للدولـة، فالبلـدات التـي انضمـت منـذ اتخـاذ القـرار عـام 1159هــ حتـى 1176هــ أي خـلال عشـرين سـنة -ومـن أبرزهـا ضرمـا والعماريـة وشـقراء والقويعيـة والحوطـة والمحمـل وثـادق والقصـب والفرعـة- إنمـا بايعـت بطوعهـا واختيارهـا لا بقـوة السـيف كمـا توهـم بعـض الغربييـن.

ولقـد شـكّل دهـام بـن دواس أميـر الريـاض رأس الحربـة للمعارضـة للدولـة السـعودية، وكان مـن أبـرز الرافضيـن للدخـول فـي طاعتهـا خـلال المرحلـة السـلمية، وعلـى أثـر اتخـاذ الدرعيـة قـرار قتـال المحاربيـن للدولـة شـعر فـي قـرارة نفسـه بالخطـر علـى مركـزه السياسـي خاصـة حينمـا رأى انضمـام عـدد مـن أهالـي الريـاض للدولـة؛ لـذا هـب لمقاومـة الدولـة السـعودية ومنـع انتشـارها وسـريان مبادئهـا بيـن العامـة، وبـدأ بمعاقبـة المنضميـن إليهـا ومصـادرة أموالهـم، وظهـر تخوفـه مـن اسـتقامة الأمـر لمحمـد بـن سـعود فبـدأ التحـرش بالدولـة ولـم يلبـث أن أظهـر العـداء مجاهـرة للدولـة السـعودية وجرهـا للحـرب.

إن المتتبـع لتوالـي الأحـداث خـلال سـنة 1159هــ/1746 يلحـظ أن دهـام بـن دواس هـو مـن بـدأ الحـرب، وأن إعـلان الدولـة السـعودية لحمـلات التوحيـد قـد جـاء للدفـاع عـن حلفائهـا فـي بلـدة منفوحـة التـي سـبق أن انضمـت إلـى الدولـة ضـد هجـوم قـام بـه دهـام مدفوعـاً بحقـده علـى زعمائهـا الذيـن انتزعـوا إمارتهـا مـن أسـرته قبـل نحـو عشـرين عامـاً إضافـة إلـى أن انضمامهـا للدولـة السـعودية جعـل الريـاض بيـن فكـي الرحـى لوقوعهـا بيـن الدرعيـة شـمالاً ومنفوحـة جنوبـاً وأصبـح لزامـا عليـه أن يتحـرك لإزالـة الخطـر المحـدق بـه فـرأى مهاجمـة منفوحـة أسـهل عليـه مـن مهاجمـة الدرعيـة لكونهـا أضعـف عسـكريّاً ولقربهـا مـن بلدتـه مسـافة. وللدفـاع عـن منفوحـة فقـد بـادرت قيـادة الدرعيـة بإرسـال قواتهـا حيـث اشـتبكت مـع قـوات دهـام وتمكنـت مـن هزيمتهـا وإصابـة دهـام بجـراح خـلال الاشـتباك اضطـر علـى أثرهـا إلـى الإنسـحاب إلـى الريـاض.

المصادر والمراجع:

- ابن باز؛ عبدالعزيز بن عبدالله: الإمام محمد بن عبدالوهاب (دعوته وسيرته). ط3، الرياض: مكتبة دار السلام،1412هـ
- ابن بشر؛ عثمان: عنوان المجد في تاريخ نجد. الرياض: وزارة المعارف، 1394هـ
- بوركهارت؛ جوهان لودفيج: مواد لتاريخ الوهابيين. ترجمة د.عبدالله العثيمين.ط1،الرياض: شركة العبيكان، 1405هـ
- الجاسر؛ حمد: المرأة في حياة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ضمن بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب. الرياض:جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1403هـ
- حتي؛ فيليب: تاريخ العرب (مطوّل). بيروت: دار الكشاف، 1951م.
- خزعل؛ حسين خلف: تاريخ الجزيرة العربية. بيروت: دار الكتب، د.ت.
- حمزة؛ فؤاد: قلب جزيرة العرب.ط1،القاهرة:مكتبة الثقافة الدينية،1423هـ
- الحيدري؛ إبراهيم بن فصيح.عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد.ط1.لندن: دار الحكمة 1998م.
- الخراشي؛سليمان:تاريخ نجد من خلال الدرر السنية في الأجوبة النجدية. ط1،بيروت:الدار العربية للموسوعات،1427هـ
- ابن خميس؛ عبدالله:الدرعية العاصمة الأولى،ط1،الرياض:دار الفرزدق،1402هـ
- كورانسيه؛ لويس الكسندر أوليفيه دو: تاريخ الوهابيين منذ نشأتهم حتى عام 1809م. ترجمة محمد خير البقاعي. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1426هـ
- الريكي؛ حسن: لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب.تحقيق د عبدالله العثيمين، الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1426هـ
- ريمون؛جان: التذكرة في أصل الوهابيين ودولتهم.ترجمة محمد البقاعي. الرياض:دارة الملك عبدالعزيز، 1424هـ
- آل سعود؛ فيصل بن مشعل بن سعود بن عبدالعزيز: موجز تاريخ الدولة السعودية. ط1. المجمعة:جامعة المجمعة، 1439هـ
- العثيمين؛ عبدالله:تاريخ المملكة العربية السعودية. ط2، الرياض: مكتبة العبيكان، 1418هـ
- العجلاني؛ منير: تاريخ البلاد العربية السعودية. ط2، الرياض:دار الشبل،1413هـ
- العريني؛عبدالرحمن:الإمام محمد بن سعود وجهوده في تأسيس الدولة السعودية الأولى.الرياض: الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ
- ابن عيسى؛ إبراهيم: تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد. الرياض: شركة العبيكان، 1419هـ
- ابن غنام؛ حسين:روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام.ط1،القاهرة: مطبعة الحلبي.
- الفاخري؛ محمد بن عمر:تاريخ الفاخري، الرياض:الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة، 1419هـ
- فتال؛ عبدالوهاب: درب الانتصار. بيروت: مطابع جريدة الجمهورية، د.ت.
- فلبي؛ هاري سانت جون: تاريخ نجد ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب. ترجمة: عمر الديسراوي، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1994م.
- ابن لعبون؛حمد:تاريخ ابن لعبون، نسخة مقتطعة من كتاب خزانة التواريخ النجدية. جمع وترتيب الشيخ عبدالله البسام، ط1،د،ن،د،ت.
- مانجان؛ فيلكس: تاريخ الدولة السعودية الأولى. ترجمة محمد البقاعي،الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1424هـ
- المطوع؛ عبدالله:مجتمع الدرعية في عهد الدولة السعودية الأولى. الرياض: الجمعية التاريخية السعودية، 1424هـ
- المنقور؛ أحمد: تاريخ الشيخ أحمد المنقور. تحقيق عبدالعزيز الخويطر. الرياض. الامانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، 1419هـ
- مؤلف مجهول: كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب. تحقيق د.عبدالله العثيمين. الرياض: دارة الملك عبدالعزيز، 1403هـ.